شعر الغزل في العصر الأموي

بين المنهج الأخلاقي والتيار المادي

دكتور عبد المنعم يونس

حمدا لك اللهم على ما أنعمت ، وشكرا لك اللهم على جميل فيضك ، وعظيم انعامك تفضلت ، وأرشدت ، وسددت ، وصلاة وسلاما على صفوة خلقك ، وخاتم رسلك محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم باحسان • وبعد ••••

فهذا بحث أعرض فيه للون من ألوان الشعر هفت لسماعة القلوب ، وطربت لنغماته الأحاسيس ، انه الفن الذى يتحدث به الشاعر الى المرأة ، أو عنها ، أو معها ، فهو فن العاطفة الجياشة ، والشعور المتأجج ، قد يسمو الشاعر بنغمه الملائكى فيدرج به فى مدارج راقية ، وقد ينحدر الشاعر بعبقريته ، فيسلك به مسالك المادية المسيطرة ، فيهوى الى ظلمات بعضها فوق بعض •

وقد أولى الباحثون ــ قدامى ومحدثين ــ هذا اللون جانبا من بحوثهم ودراساتهم فتشعبت الآراء ، وتباينت المذاهب والاتجاهات ، مما يجعل القارىء يتطلع الى كلمة تجمع ما تفرق ، وتجلو ما غمض ، وتكشف ما خفى فى منعطفاته وزواياه •

وسأحاول فى هذا البحث ــ على الرغم من ضيق المساحة المحددة له ــ أن أقوم بتغطية هذا الجانب ، وأن أسهم بنصيب فى بنيان صرح الشعر ، وهو أمر أرجو أن أوفق فيه •

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السادس، مطبعة الأمانة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م

ان الذى يحاول استنطاق المصادر القديمة التى وضعت توصيفا للشعر العربى يجدها قد وجهت جل عنايتها للتفريق بين أغراض الشعر من وصف ، أو مدح ، أو رثاء ، أو هجاء ، وعندما تحدثت عن الغـــزل وضعته حينا تحت هذا الاسم ، وحينا تحت اسم النسيب ، وفى أحيان كثيرة لم تفرق المصادر بين الغزل والنسيب •

فقدامة بن جعفر عندما أراد التفريق بين الغزل والنسيب قد خانه التوفيق ، ومن يقرأ حديثه فى كتابه نقد الشعر عن حد النسيب ، والفرق بينه وبين الغزل يجد اضطرابا فى التعبير حتى لا يكاد يتبين فرقا بينهما ، فهو يقول : « ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن ، وقد يذهب على قوم ــ أيضا ــ موضع الفرق بين النسيب والغزل والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى اذا اعتقده الانسان فى الصبوة الى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه » (١) •

فالغزل عند قدامة أمر كامن فى النفس لا يظهر أثره الا فى النسيب ، فالشعر الذى يذكر صـــفات النساء ، وأحوال المحب معهن هو النسيب الناتج عن تأثير الغزل فى قلب الشاعر ، وعلى ذلك جاء قوله : « والغزل انما هو النصابى والاستهتار بمودات النساء ، ويقال فى الانسان انه غزل اذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن لحاجته بالوجه الذى يجذبهن الى أن يملن اليه ، والذى يميلهن اليه هو الشـــمائل الحلوة ، والمعـــاطف الظريفة والحـــركات اللطيفة ، والكلام المستعذب ، والمزاج المستغرب » (٢) •

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٤ تحقيق د• محمد عبدالمنعم خفاجى • مكتبة الكليات الأزهرية •

(٢) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٤ المصدر نفسه •

ثم يقول عن النسيب : « فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة » ثم يقول : « وقـد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعـاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة » .

فكلام قدامة بن جعفر عن الغزل لا يختلف عن النسيب ، فكلاهما ـ أى الغزل والنسيب ـ بحاجة الى أن يجتذب النساء اليه ، وأن يميلهن نحوه ، وما كثرت فيه الأدلة على التهالك ، وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة » فكل هذه الصفات يتصف بها الغزل والنسيب ، وهو ما يعنى عدم الفرق بينهما .

أما ابن رشيق فانه يعقد بابا للنسيب يقول فيه : « حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعانى سهلها غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى بين الايثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين » (١) .

ثم ينتقل ابن رشـيق بالمعنى نقلة أخـرى فيفرق بين النسيب والتغزل والتشبيب ، وبين الغزل فيقول : « والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، أما الغزل فهو الف النساء ، والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شىء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ » (٢) .

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ١١٦ .

(٢) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ ٢ ص ١١٧ المصدر نفسه .

فقد فرق ابن رشيق بين الغزل والتغزل ووافق قدامة فيما ذهب اليه من ذكر النسيب والغزل لكنه قد أتى لنا بمعنى آخر هو التشبيب الذى يعنى الحديث عن المرأة .

ومن كلام قدامة وابن رشيق يمكننا أن نقرر أن النسيب هو ذلك اللون من الشعر الذى تفتتح به القصائد ، وهو ما سار عليه شعراء العصر الجاهلى وصدر الاسلام فى افتتاح قصائدهم بالحديث عن المرأة ، وذكر أحواله معهن ، حتى ان ابن رشيق يقول : « من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أجزائه ببعض » (١) .

والأمثلة التى ساقها ابن رشيق تختلف من حين لآخر ، فهو أحيانا يسوق أبياتا كاملة ، ويضعها تحت باب النسيب ، وأحيانا يذكر افتتاحيات قصائد لبعض الشعراء ، ويضعها تحت باب النسيب أيضا ، فكأنه اصطلح على أن التغزل أو الغزل ، والنسيب ، والتشبيب بمعنى واحد .

وقد صنع ذلك قدامة بن جعفر ، فهو يقول : « فأما النسيب نفسه فقد تقدمت أوصافنا له ، ثم يقول : « ومما أختم به القول أن المحسن من الشعراء فيه هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو دائر أنه يجد ، أو قد وجد مثله ، حتى يكون الشاعر فضيلة الشعر .

ثم يقول ممثلا ذلك قول أبى ضمر الهذلى يصف ما رأى أن كل متعلق بمودة يجد مثله قوله :

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ ٢ ص ١١٧ المصدر نفسه .

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها
بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو الا أن أراها فجاءة
فأبهت لا عرف لدى ولا نكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها
كما قد تنسى لب شاربها الخمر

ثم يقول : « وفى هذه القصيدة ـ أيضا ـ موجع آخر دال على افراط المحبة ، مبين عن سجية فى أهل الهوى عامة وهو قوله :

ويمنعنى من بعد انكار ظلمها
اذا ظلمت يوما وان كان لى عذر
مخافة أنى قد عرفت لأن بدا
لى الهجر منها ما على هجرها صبر
وانى لا أدرى اذا النفس أشرفت
على هجرها ما يفعلن بى الهجر

ثم يقول : « وكما قال الشاعر :

يود بأن يمسى سقيما لعلها
اذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلى
لتحمد يوما عند ليلى شمائله

ثم يقول : « فهو من أحسن القول فى الغزل ، وذلك أن هذا الشاعر قد أبان فى البيت الأول عن أعظم وجد وجده محب ، حيث جعل السقم

أيسر ما يجد من الشـــوق فانه اختـــاره ليكون ســـــبيلا الى أن يشفى بالمراسله ، فهو أيسر ما يتعلق به الوامق ، وأدنى فوائد العاشق » (١) .

ولعل القارىء لهذا الكلام يرى آن قدامة قـــد استخدم الغـــزل والنسيب بمعنى واحـــد ، وهو ما اضـــطرب فيه عنـــد تعريفه للغزل والنسيب ، وهذا ما يجعلنا نميل الى ان هذه المسميات التى استخدمها هؤلاء العلماء انما هى مسميات لاسم واحد هو الغزل ، وعلى ذلك جاءت نظرة المتأخرين الذين نظروا الى هذه الكلمات الثلاث على انها تعبر عن معنى واحد هو الغزل ، فقد أطلقوا الغزل على كل شعر يذكر النساء ، ويصف أحوال الهوى معهن ، فجعلوا الغزل غرضا من أغراض الشعر ، فهو قسيم المدح والهجاء والفخر والرثاء .

واذا حاولنا تبين وجهات نظر الباحثين المحدثين فاننا نجد أنهم حينا حاولوا التفريق بين الغزل والنسيب ، وأحيانا أطلقوا الغزل على الغرض العام الذى يذكر فيه الشاعر المرأة ، فالأستاذ الرافعى يفرق بين الغزل والنسيب فيقول : « ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الأخص كما جرى فى عرف الناس ، ولكن بينهما فرقا نبه عليه قدامة » (٢)

وبعد أن يذكر جانبا من حديث قدامة بن جعفر عن الغزل والنسيب ، وحد النسيب الذى بينه قدامة يقول : « لا جرم كانت هذه الأخلاق التى يحلو بها النسيب ، ويعذب الغزل غير صريحة فى البداوة ، ولا خالصة فى تلك الخشونة الفطرية التى طبع عليها العرب فى جاهليتهم ، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التى انسلخت عن الطبيعة العربية،

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٦ ، ١٣٧ المصدر نفسه .

(٢) مصـــطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العـــرب جـ ٣ ص ١٠١ ـ مطبعة الاستقامة ١٩٥٠ م .

وتحولت عن صميمها بما فيها من المـادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة فان أول من تعهر فى شعره من العرب ، وشبب بالنساء انمـا هـو امرؤ القيس باجماع الرواة » (١) .

فقد أورد الأستاذ الرافعى الكلمات الثلاث فى حديثه عن الغزل ، والذى يقرر فيه أن الجاهليين لم يكثر ذلك اللون فى شعرهم ، ثم يضرب مثـالا لذلك بامرىء القيس الذى تعهر فى شعره ، وشبب بالنسـاء ، فالغزل والنسيب والتشبيب قد اجتمعت كلها فى شعر امرىء القيس، وهو أمر يجعلنا نطمئن الى أن هـذه المسميات تطلق ويراد بها اسـما واحدا ، أو يضمها جميعها اسم الغزل .

ولم يعرف الشعر الجاهلى شعراء صرفوا كل شعرهم للغزل ، أو اتجهوا بشعرهم الى المرأة دون سواها ، وانمـا عرف شعراء ورد ذلك اللون فى شعرهم كثيرا ، أو حفلت حياتهم اللاهية بقصص شعرية أبانوا فيها علاقاتهم النسائية ، ومغامراتهم العاطفية ، وسواء أكانت هذه القصص واقعية أم خيالية فانها قدمت لنا حصادا لهذه المغامرات تمثل فى ذلك الشعر الذى بقى تعبيرا عن تلك الحياة اللاهية العابثة التى لم ترعو الا بعد أن صرفوا عنها مرغمين .

فالأعشى مثلا كان شغوفا بالنساء ، مرتادا أماكن الفسق ، وكان يعشق القيان والغناء ، وكان يحب التغنى بشعره ، فسمى صناجة العرب ولم ينصرف عن حياته اللاهية الا عندما ودعه الشباب ، وفارقته فحولته ولقد أثبت صاحب الأغانى بسنده أن الأعشى كان قد أعد قصيدته فى مدح الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان قد كبرت سنه فقال :

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١١١ المصدر نفسه .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وعادك ما عاد السليم المسهدا
وما ذاك من عشق النساء وانما
تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

وفيها يقول :

فآليت لا أرثى لها من كلالة
ولا من حفا حتى تزور محمدا
نبى يرى مالا ترون وذكره
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم
تراحى وتلقى من فواضله يدا

يقول صاحب الأغانى : « فبلغ خبره قريشا فرصدوه على طريقه، وقالوا : هذا صناجة العرب ما مدح أحدا قط الا رفع فى قدره ، فلما ورد عليهم قالوا له : أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم • قالوا : انه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ، ولك وامق قال : وما هن ؟ فقال أبو سفيان بن حرب :
الزنا • قال : لقد تركنى الزنا وما تركته » (١) •

فهو اذن قد ترك هذه الخلة عند ما لم يجد لديه القدرة عليها •

وكذلك فعل امرؤ القيس الذي كان مضرب المثل فى خلاله هذه عندما قتل أبوه وقال « ضيعنى أبى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر » •

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ١٢٥ ، ١٢٦ الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب • « تراثنا » •

لم يكن للجاهليين معالم واضحة فى شعر الغزل ، وانما هى أبيات يقولها الشاعر بادئابها قصيدته ان كان من المتعقلين ، أو ذاكرا بهـا أوقات لهوه ، وساعات صبوته ان كان من المتعهرين : « فقد كان غزل الجاهليين لهوا يصف فيه الشعراء : كيف كانوا يحفلون باللذائذ الحسية من الحبيب ، وكيف كانوا يؤدون فيه ما يجب للشباب ، ويسيمون فيه سرح اللهو ما سنحت الفرصة ؟ حتى اذا ولى عهد الصبا ارعوى الرجل منهم عن ذلك الباطل من اللهو ، وعده مجونا لا يستقيم وجد الحياة ، وهذا ما يعبر عنه دريد بن الصمة فى رثاء أخيه :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسـه
فلمـا علاه قال للبـــاطل ابعـد

وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعـرى أفراس الصـــبا ورواحله

ولم يعد الغزلون من الجاهليين ــ فى جملتهم ــ تلك النظرة الى الغزل من أنه ضرب من اللهو بغية الحصول على متع الحياة ، والظفر بلذاتها ، ولذا ترى شعراءهم يتحدثون عن الحب الذى ينشر على الشباب المرح ، وعلى الحياة السرور ، ويأسفون على ضياع تلك الحقبة الطيبة من العمر ، ويبكون بقايا ذكراها فى النفس كما يبكون آثارها فى أطلال ديار الحبيب ، فاذا فرغوا من ذلك فى أول قصـــائدهم ــ وسرعان ما يفرغون ــ انصرفوا عن هذا الغرض الى أغراض القصيدة الأخرى التى هى فى نظرهم أجدر بمكانة الشاعر ، وأدعى لأن يتوجه اليهاهم الرجال » (١) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٩ ط دار نهضة مصر .

ومن يمرا تحليلنا لصورة المرأة عند الشعراء السبعة (١) يجد ان أظهر شاعر صرف كثيرا من شعره الى التعهر ، وذكر أحواله مع النساء كان امرأ القيس ، أما الشعراء الستة فان نسيبهم كان نسيبا فيه جانب من العفاف والفضيلة ، حتى ان الأستاذ الرافعى بعد أن تحدث عن تعهر امـرىء القيس ، ومهلهل بن ربيعة يقـول : « ولم يجىء بعد هذين الشاعرين من يتهالك فى غزله غير النابغة الذبيانى ،وقد أفحش فى بعض نسيبه افحاشا كأنه رومى أو فارسى ، لطول ما صحب المناذرةوالغساسنة أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سنة قومهم من الغيرة والأنفة ولذلك ظهر النسيب فيهم طبعيا ، فقامت فيه الطلول والآثار ، وتشوقوا بالرياح الهـابة ، والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيـالات الطائفة ، وبكوا على آثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة .

وهم اذا وصفوا محاسن النساء ، لم يزيدوا على الأوصاف الطبعية التى تقع عليها الأعين اذ كن غير مقصورات ولا محجوبات،وانما تجىء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتبارا طبعيا كالذى تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر ، وخضرة الرياض ، وأريج الأزهار ، ونحو ذلك، وأظن أن اجمـاع الناس كافة على اختلاف أممهم فى تشـبيه الحسن النسائى بتلك المعـانى انما جاءهم من ذلك الاعتبار ، لأنه فيهم ارث الطهارة الطبعية من لدن الانسان الأول ، ولذلك السبب عينه لم تألف العربية أن توصف محاسنها ، لأن الحسناء فيهم (صـفة) نفسها ، وانما كان الشأن فى ريبة النظر ، ودنس الفؤاد ، وذلك الذى يستطير له الشر بينهم ، وتعقد عليه الغارات ، فهو غزل الأسنة لا غزل الألسنة ، وهو ــ أيضا ــ كان السبب فى أن النسيب لم يغلب على شعر واحد

---

(١) انظـر للكاتب : صـورة المرأة العربية فى السـبع الطوال . ط مطبعة الأمانة ١٩٨٥ م .

من شعرائهم ، فيعرف كما عرف قوم بالهجاء والمديح وغيرهما ، وعلى أن هذا النسيب كان نوعا من أنواع الوصف فهو كذلك لم يتميز به شاعر تميزة بالأوصاف الأخرى » (١) .

ولا بد أن نقف عند قضية أخرى ــ أيضا ــ حتى يمكننا أن نضع تصورا للنسيب الذى درج عليه الشعراء الجاهليون فى افتتاحيات قصائدهم ، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المرأة نظرة تجعلها تتمتع بجانب كبير من التقدير والاحترام ، والقارىء لقصائد الشعراء السبعة ــ عدا امرىء القيس ــ يرى ذلك واضحا فى شعرهم ، فهم جميعا يحرصون على صيانة صواحبهم ، ويعلنون عفافهن لأن المرأة العربية كانت تعشق هذه الصفات ، فهى تحس أن الرجل وان أحب من المرأة تبذلا ، وفحشا الا أنه لا يحب الاقتران بامرأة لا تتحلى بالعفة ، ولا تتمتع بالطهر والمنعة فهذا سليك بن السلكة يقول :

من الخضرات لم تفضح أخاها
ولم ترفع لوالدها شنارا
يعاف وصال ذات البذل قلبى
واتبع المنعة النوارا

فالعرب يحبون المرأة التى تضرب عفتها حجابا بينها وبين الناس ، فلا يستطيع أحد الوصول اليها أو العبث بها ، والمرأة العفيفة التى تحفظ غيبة زوجها ، وترضى أوبته وحضوره ، وهذا المعنى هو الذى لمسه علقمة بن عبدة الفحل عندما قال :

ممنعة ما يستطاع كلامها
على بابها من أن تزار رقيب

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١١١ ــ ١١٢ المصدر نفسه .

اذا غاب عنها البعـــل لم تفش سره
وترضى اياب البعـــل حين يئـــوب

وقد كانت الحرة فى العصر الجاهلى تكره الزنا ، وترى فيه لونا من اهدار الكرامة والنزول بها الى درجة السبايا ، وقد قيل ان هندا بنت عقبة أنفت منه أمام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما تلا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على النساء اللائى بايعنه « ولا يزنين » فقالت هند : « وهل تزنى الحرة » ؟ وهو استفهام يعطينا مدلولا على أن الزنا كان مبغضا الى الحرائر من النساء •

الغزل فى صدر الاسلام :

وقـــد كان الشعراء فى صـــدر الاسلام ينهجون نهج الشـــعراء الجاهلين ، فلم يكن لشعر الغزل شعراء تفردوا فيه ، أو وجهوا عنايتهم نحوه ، وانما أتى النسيب فى افتتاحيات قصائدهم ، وكان منهم من يكثر من ذلك فى أول قصيدته ، ومنهم من يلزم جانب الاعتدال ، ومنهم من يبدأ قصيدته دون أن يقول شيئا من النسيب •

والمتتبع لدواوين الشعراء الذين عاصروا عهد النبوة ، وما تلاه من عصر الخلفاء الراشدين يرى أنهم بدأوا قصائدهم بما قدمنـــا حسبما تفرضه عليهم الأحداث ، وتتطلبه منهم المواقف فحسان بن ثابت بدأ قصائده حينا بالنسيب فقال :

عـــــرفت ديـــار زينب بالكثيب
كخط الوشم فى الورق القشيب

وقال أيضـــا :

عفت ذات الاصـــابع والجـــواء
الى حســـــناء منزلهـــــا خلاء

وفى أحيان كثيرة كان يبدأ قصائده بالدخـول فى غرضه مباشرة ، وخاصه تلك القصائد التى رد بها على المشركين ، وانتصر فيها للمسلمين ، وصنع صنيعه هذا كعب بن مالك الأنصارى وعبد الله بن رواحه، ولايقولن قائل ان هؤلاء الشعراء صنعوا ذلك ، لأنهم كانوا يقولون الشعر أمام رسول الله ــ صـلى الله عليه وسلم ــ فتحرجوا من قول هـذا الشعر حياء منه ، أو اعتقادا منهم أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينهى عن ذلك اللون من الشعر ، لأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم أن هذا هو منهج العرب فى قصائدهم ، فسمع الشعر ــ كل الشعر ــ من هؤلاء الشعراء ومن غيرهم ممن يؤثرون بدء قصائدهم بالنسيب ، فقد استمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى كعب بن زهير وهو ينشد رائعته بادئا اياها بالنسيب فقال :

باتت سـعاد فقلبى اليوم متبـول
متيم اثـرها لم يفـد مكبـول
وما سـعاد غداة البين اذ رحلوا
الا أغن غضـيض الطـرف مكحول

وفيها يقـول :

تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت
كأنـه منهـل بالراح معـلول

ثم يقول فى الحديث عن أخلاقها وأنها دأبت على خلف الوعد :

اخالهـا خلة لو أنها صـدقت
موعودها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قـد سيط من دمهـا
فجع وولع واخلاف وتبـديل

فما تدوم على حـــال تكـــون بها
كمـــا تلون فى أثوابهـــا الغول
ولا تمســـك بالعهد الذى زعمت
الا كما يمســـك المـــاء الغرابيل

ولقـــد جاءت القصيدة فى سبعة وخمسين بيتا خص الغزل ، أو النسيب بخمسة وثلاثين بيتا ، ثم وجه الباقى لمدح رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ ومن معه من المهـــاجرين ، لكنك تلمس من قراءتك لأبيات النسيب أنها لم تأت من ذلك اللون المـــاجن المتبذل ، وانما لمس كعب فيها معانى قد لا تبعد كثيرا عما يريده الاسلام ، فقـــد حاول فى الأبيات الأولى أن يقدم وصفا لمحبوبته التى رحلت عنه ، وفارقته يعانى حرقة الوجد ، وتباريح الجوى ، وألم البعد ،ثم هى من اللواتى يتمتعن بالدل ، وينعمن بالحياء ، فهى « غضيض الطرف » لا من اللواتى يرسلن نظراتهن ، وكأنها سهام مريشة •

ويمر كعب مرورا سريعا على بعض الأوصاف الحسية فى محبوبته ، ليقدم لنا بعض الصفات المعنوية التى تلازم حرائر النساء وعظيماتهن ، فالمرأة لا توصف بالتبذل ، والتهافت على الرجال ، وانما توصف بالتمنع ، ونقض ما وعدت اذا كان ذلك سيؤثر على عفافها ، وطهارة ذيلها لقـــد ألح كعب على هذا المعنى كثيرا ، انها « لا تمسك بالعهد الذى زعمت » و « مواعيدها مواعيد عرقوب » و « لا يغرنك ما منت وما وعدت » كل ذلك جاء فى مقدمة كعب بن زهير ، أو فى غزله الذى افتتح به قصيدته التى ألقيت بين يدى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يتحرج كعب من ذلك ، ولم يستنكر عليه أحد ذلك المنهج الذى نهجه •

حتى قيس بن الخطيم الشاعر الأوسى الذى قيل انه لم يعتنق

الاسلام ــ فقد أقام على شركه (١) ولم يرد فى كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، كان يتغزل ــ ايضا ــ ولكنه غزل يصلح أن يكون منهجا يقتدى ، وأسلوبا يحتذى ، فهو يقول مثلا :

أتعــرف رســما كاطــراد المذاهب
لعمـــــرة قفــرا غــير موقف راكب
ديار التى كادت ، ونحــن على منى
تحــل بنــا ، لولا نجــاء الركائب
تراءت لنــا كالشــمس تحت غمامة
بدا حاجب منهــا وضــنت بحاجب
ولــم أرها الا ثـــلاثا عــلى منى
وعهـــدى بهــا عذراء ذات ذوائب
ومثلك قــد أصــبيب ليست بكنـــة
ولا جــارة ولا حليلة صــاحب (٢)

فقد تغزل بمعان عامة ، فذكر فى البيت الأول رسم الديار وآثارها على عادة الشعراء الجاهليين ، ثم تحدث عن محبوبته التى رآها بمنى ففكر فى ترك قومه يرحلون ، حتى يبقى فى هذا المكان الذى فتنته فيه عمرة ، وأخذت عليه مجامع قلبه ، ولولا أن هذا الأمر لا يألفه الناس ، فهم ينفرون الى بلادهم بعد أداء مناسك الحج لأقام فى هذا المكان الذى تقيم فيه هذه المرأة . لقد تراءت له كأنها الشمس غطى الغمام جانبــا منها ، وبدا جانب آخر ، وهى صورة أخذها قيس من بيئة المدينة المنورة،

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ مطبعة المدنى . القاهرة .

(٢) ابن سـلام الجمحى : طبقـات فحول الشـعراء جـ ١ ص ٢٢٨ مطبعة المدنى . القاهرة .

تلك المنطقة التى يعمها الغمام ، ويغمرها المطر ، وهى صورة تفرد بها قيس ، ثم ذكر فى نهاية تسييه أنه رجل تعشقه النساء ، ويميلهن اليه ، وكثيرا ما يغريهن بملاحقته ، وتتبع سيره ، ولكنه لا يصنع ذلك مع زوج أخيه ، أو جارته ، أو حليلة صديقه ، لأن خلقه يأبى عليه ذلك .

وسواء أكانت هذه أخلاقه فى الجاهلية ، أم تأثر بما كان يسمعه من امرأته المسلمة عن أخلاق المسلمين ، وما يصنعه الاسلام فى رعاية الحرمات ، وحقوق الجيران ، وعدم النظر الى خلائل الأصدقاء (١) فان هذا اللون من الشعر هو الذى يدعو اليه الاسلام ، وبحث الشعراء على السير على منهجه ، وقد تبين ذلك من ذم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — امرأ القيس ، وحكمه عليه بأنه يأتى يوم القيامة ومعه لواء الشعر الى النار ، لأنه تعهر فى شعره ولم يترك طريقا الا سلكها ، وفى مقابل ذلك كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يود لو أنه رأى عنترة بن شداد العبسى ، وذلك لما علمه عنه من عفة وكرامة ، وحسن خلق ، ورعاية للحرمات .

---

(١) كان قيس بن الخطيم مقيما على شركة ، واسلمت امرأته ، وكان يقال لها حواء ، فكان يصدها عن الاسلام ويعبث بها يأتيها وهى ساجدة ، فيقبلها على رأسها ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بمكة قبل الهجرة يسأل عن أمر الأنصار ، وعن حالهم ، فأخبر باسلامها ، وما تلقى من قيس ، فلما كان الموسم أتاه — صلى الله عليه وسلم فى مضربه ، فلما رأى النبى — صلى الله عليه وسلم — رحب به وأعظمه ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — ان امرأتك قد أسلمت ، وانك تؤذيها فأحب أن لا تعرض لها قال : نعم وكرامة يا أبا القاسم لست بعائد فى شىء تكرهه فلما قدم المدينة قال لها ان صاحبك قد لقينى فطلب الى ألا أعرض لك فشأنك وأمرك . . ابن سلام الجمحى جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ المصدر نفسه .

واذا كان الاسلام ينهى عن التعهر فى القول ، وعن الغزل الفاضح فلأنه يعلم أن هذا الكلام تردده الألسنة ، وتتداوله العامة والخاصة ، ويتغنى به الناس فى نواديهم وخلواتهم وساعات لهوهم ، فيؤثر فيهم تأثيرا ضارا ، وينأى بهم عن الفضيلة التى ينشدها الاسلام ، أما الشعر الملتزم — ان جاز لنا استخدام هذا الاسلوب • فان الاسلام لم ينه عنه، ولم يمنع التغنى به ، أو ذكره عند الحاجة اليه ، فالشعر والغناء صنوان درجا فى مدرج واحد ، وشبا معا يمتعان الانسان ، ويسريان عنه همومه وآلامه ، وقديما قال العربى عن الشعر والغناء •

فغنهـا وهى لـك الفـداء
ان غنـاء الابـل الحـداء

وتبعه فى ذلك حسان بن ثابت فقال :

تغن بالشـعر اما كنت قائله
ان الغناء لهـذا الشعر مضمار

وقد تمكن شعراء الأوس والخزرج — عن طريق غناء الشعر — أن يلفتوا نظر النابغة الى ذلك العيب الذى ورد فى شعره ، فقد كان النابغة « يقوى » فى شعره « فقدم المدينة ، فعيب ذلك عليه ، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه اياه فى غناء — وأهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب ، فقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فمرّ لى ، فلما قالت •• « الغداف الأسود » و « يعقد » و « باليد » علم وانتبه ، فلم يعد فيه ، وقال : قدمت الحجاز ، وفى شعرى ضعة ، ورحلت عنها ، وأنا أشعر الناس •

والأبيات التى ورد فيها هذا العيب هى قوله فى وصف المتجردة امرأة النعمان بن المنذر :

أمن آل مية رائح أو مغتـــدى
عجـــلان ذا زاد وغـــير مزود
زعم انبوارح أن رحلتنا غـــدا
وبذاك خبرنا الغداف الأســـود

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتنـــــاوله واتقتنـــــا باليـــــد
بمخضـــب رخص كأن بنـــانه
عنهم يكاد من اللطافة بعقد (٢)

واذا كان الشعر قرين الغناء فانه يعرض له ما يعرض للغناء ، أو يعرض له ما يعرض للغناء من اباحته أو رفضه . ذلك أن الاسلام أباح الأمور التى من شأنها أن تربى الذوق الخلقى الذى يعتمد على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة ، ولذلك فاننا لا نتفق مع الدكتور شوقى ضيف الذى استنتج بعد نصوص ذكرها من حياة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند سماعه للشعر وسماعه للغناء يوم العيد عندما كانت عائشة تغنى مع جاريتين من بنات الأنصار ، وعدم تحريمه للغناء فقال : « ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن يحرم الغناء ، ولا كان يدعو الى نبذه ، أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فانمـــا جاء متأخرا ومتأثرا بآراء شـــخصية لبعض

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، وقوله « مزود » بكسر الدال ، « ويعقـد » بضـمها وكذلك « باليد » بكسر الدال « ويعقد » بضمها . فجاء الاقواء من اختلاف حركتى الروى .

الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود ، وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون فى الغناء ، وفى أباحته وتحريمه ، ويقول ابن عبـد ربه : اختلف الناس فى الغناء ، فأجازه عامة أهل الحجاز ، وكرهه عامة أهل العراق ، وأخذ رأى أهل العراق يسود فى العصـور المتأخرة ، وخاصة عند المتشددين ، وقد عقد الغزالى فصلا طويلا فى الاحياء دلل فيه من وجوه كثيرة على اباحته ، وأنه لا يدعو الى تحريمه نص أو قياس » (١) •

والمتتبع لسيرة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يجد أنه لم يستمع الى كل شعر قيل ، أو الى كل غناء تردد ، وانمـا استمع الى الشعر الذى دافع به الشعراء عن الدعوة الاسلامية ، والغناء الذى قصد به حفز الهمم ، فقد كان ينشد مع الأنصار يوم الخندق •

اللهـم ان العيش عيش الآخـرة
فار حم الأنصـار والمهـاجرة

واستمع الى غناء عائشة وصاحباتها يوم العبد ، ولكنه أمال عنهن بوجهه ، وفى ذلك دلالة منه على الرضا عنهن ، وعدم نهرهن ، ولكنه لم يقدم عليهن بوجهه حتى لا ينظر الى الجاريتين •

أما الامام الغزالى فقـد أورد حديثـا طويلا عن السماع وقول الشعر ، ولكنه يقصد السماع الذى لا يحث على الرذيلة ، ولا يتـأثر المستمع له باثارة الغرائز وارتكاب المحرم ، فبعد أن تكلم عن المغنية ، وأنها اذا كانت امرأة لا يجوز السماع اليها ، أو الخلوة بها ، وعن آلات الغناء ، وأنها لا تكون من شعار أهل الشرب ، أو المخنثين ، وهى المزامير

---

(١) د• شوقى ضـيف : الشـعر والغناء فى مكة والمدينة ص ٤٢ ط دار المعارف •

والأونار قال : « العارض الثالث فى نظم الصوت ، وهو الشعر فان كان فيه شىء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى ، وعلى رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو على الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ــ فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت يناقح عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويهاجى الكفار ، وأمره ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذلك فأما النسيب ، وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ ، وحسن القد والقامة ، وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وانشاده بلحن وبغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة » (١) .

فالامام الغزالى لم يفتح الباب على مصاريعه فى اباحة الشعر والغناء ، وانما وضع قيودا يجب أن يلتزمها كل من يرى فى نفسه أهلية لذلك ، أو يجد لديه القدرة على العزف على وتر الشعر ، أو الضرب على نغم الغناء .

ونحن مع الامام الغزالى فيما ذهب اليه ، وهو ما أيدته النصوص الواردة فى اباحة الشعر عموما ، ومن بينه شعر الغزل ، وأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحابته عندما استمعوا الى الشعر كانوا يستمعون الى شعر له منهجه الأخلاقى الذى يربى فى الناس ذوقا رفيعا ، وأدبا هادفا ، واذا كان الغزل فى صدر الاسلام قد جاء فى أول القصائد ــ كما كان عليه الحال فى العصر الجاهلى ــ فان هناك فروقا قد حدثت

---

(١) أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٢ ص ١١٤٤ ط الشعب

لشعر الغزل من أهمها رعاية الحرمات ، وصيانة الأخلاق وتنزيه الألسنة من الخوض فى ألوان الخلاعة والمجون ، ولعل القارىء يدرك الفرق من شعر حسان بن ثابت الاسلامى ، ومن غزله الذى ساقه فى أول قصائده ، فهو يقول فى غزوة بدر :

تبلت فؤادك فى المنـــام خـــريدة
تســقى الضــجيع ببيــارد بســام
كالمســـك تخلطه بمــاء ســـحابة
أو عاتق كــدم الذبيح مدام (١)

فلقد جعل صاحبته تزوره فى منامه ، وكأنه يقول للسامع له : ان هذا الأمر لم يحدث حقيقة ، وانما هى أضغاث أحلام ، ولا يلام المرء على حلم رآه ، حتى ولو كان ذلك قــد حدث له مع فتاة جميلة تســعد ضجيعها برائحة طيبة ، أو زينة تأخذ عليه بصره ، وهذا مثال ضربته ، لنتبين منه منهج الغزل فى عصر صدر الاسلام .

الغزل فى عصر بنى أمية :

كان الغزل ــ اذن ــ فى العصر الجاهلى محصورا فى تلك الأبيات التى تقال تمهيدا للغرض الذى قصد اليه الشاعر ، ورغبة منه فى استحالة قلوب سامعية ، والتأثير على عواطفهم حاول أن يقدم لهم قطاعا يتحدث فيه عن المرأة ، أو اليها ، أو يسوق لهم قصة غرامية حدثت له ، فامتلكت عليه جوانحه ، فأخذ ــ يتذكرها ــ دائما ــ وقد تكون هذه القصــة من نسج الخيال أوحى بها اليه شيطان الشــعر ، وزينتها له عبقريته ، وأحكمتها ديباجة قوية ، فذاعت أحداثها ، وتناقلتها ألســنة العامة ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ .

وأضحت حديثهم فى منتدياتهم بله ان هذا اللون من الشعر لم يكن له شعراء صرفوا شعرهم له ، أو جعلوه وكدهم وهجيراهم .

اما شعراء صدر الاسلام فقد ارتقوا بشعر الغزل ، فابتعدوا به عن الألفاظ القبيحة والعبارات التى تخدش الحياء ، والمعانى التى تثير الغرائز ، وتحرك الشـــهوات ، لكنهم لم يبعدوا به كثيرا عن الغزل فى العصر الجاهلى ، فجعلوه فى افتتاحيات قصائدهم ، ولم يتخذوا منه ــ أيضا ــ غرضا مستقلا يهدفون اليه ، ويوجهون عنايتهم نحوه ، وانما قالوا منه الأبيات فى افتتاحيات قصائدهم ، رغبة منهم فى اقامة عمود الشعر ، وفى الحفاظ على ديباجة هذا الفن الذى طالمـــا أمتع أصحاب الأذواق الرفيعة ، وتغنى به محبو الجمال ، ورددده الناس فى أوقات أفراحهم .

وتمـــر الايام مليئة بالأحداث التى شغلت المجتمع الاسلامى ، وصرفته عن التفكير فى كثير من أمور كانت تشغله قبل الاسلام ، وخاصة ما كانت تتمتع به تلك الأماكن المتحضرة من قطع لأوقات الفراغ على نغمات القيان ، ومعزوفات الشعراء ، وأضحى الناس لا يفكرون الا فى تأصيل مبادىء الدين الاسلامى فى قلوب أولئك الأعراب الذين حاولوا بعد انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى أن يعودوا سيرتهم الأولى ، وأن ينفسوا على القرشيين امامتهم ، وأن يمنعوا أداء أصل اسلامى حاولوا جعله ذريعة لارتدادهم عن دين الله ، فقاومهم المســـلمون ممن تعمق الايمان فى قلوبهم ، وممن ذاقوا مرارة الكفر ، ونعموا بحلاوة الايمان ، وعادت الجزيرة العربية سيرتها الأولى ، لتنتظم تلك المسيرة الايمانية التى خرجت تنشر كلمة التوحيـــد وترفع راية الاســـلام فى اتجاهات متباينة ، وأماكن متباعدة ، ولتقف أمام قوى كبرى ما كان للعرب قدرة عليها لولا قوة الايمان ، واليقين بنصر الله الذى وعد .

وفى تلك الحروب التى استمرت زهاء قرن تفتحت عيون العرب على مجتمعات جديدة ، وحضارات مختلفة لم يكن للعرب سابق عهد بها ، بل انهم سبوا من هذه البلاد كثيرا من السبايا اللائى استقدمن الى الجزيرة العربية ، وأسروا كثيرا من الرجال الذين أتوا مع سادتهم الى أماكن متفرقة من حواضر الحجاز ، ولقد اعتنق هؤلاء جميعا الاسلام ، واندمجوا فى المجتمع الجديد سواء أكانوا فى حواضر العرب والاسلام الأولى ــ كمكة والمدينة ــ أم كانوا فى حواضره الجديدة ــ كدمشق وبغداد ، وهنا وهناك قام هؤلاء القادمون ، أو من أطلق عليهم اسم الموالى بدور فعال فى تغيير كثير من عادات المجتمع الاسلامى وتقاليده الأصيلة ، ثم انهم وجدوا رغبة من شباب العرب الذين أغرقوا فى الأموال ، ورأوا أن يخلدوا الى الراحة والنعيم ، بعد أن أجهدوا فى تلك الفتوحات التى حملوا عبئها سنوات طوالا ، أو قل أريد لهم أن ينعموا بتلك الأموال التى أفاء الله بها عليهم ، والتى جعلت المجتمع اليدوى المتقشف يتحول الى مجتمع ينعم بخيرات الدنيا ، ويتمتع بما يأتيه من خراجها وغلاتها دون تعب أو اعياء .

وحيال هذه الظواهر الجديدة ، أو المتغيرات التى حدثت فى هذه الفترة نشأ اتجاهان متعاكسان أو منهجان متباينان لا يمكن للباحث أن يرى تقاربا بينهما . لذا يمكننا أن نقول ، ان هناك لونا منهما تعمق أسرار الاسلام ، وفهم ما يرمى اليه القرآن من صقل للنفوس ، وتهذيب للقلوب ، وترقيق للحواس فسلك طريقا لا يرى فيها لشهوة مكانا ، ولا للمادية مجالا ، فقالوا الشعر الذى أضحى فيما بعد منهجا سلكه الشادون الى الفضيلة ، والمجاهدون أنفسهم كى تنعم من الذات العلية بوصل وقرب ، فقالت على نغمة رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هـو حب الهـوى
فشـغلي بذكرك عمن سـواكا
وأما الـذي أنت أهـل لـه
فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمـد في ذا ولاذاك لي
ولكن لك الحآـد في ذا وذاكا

قال الغزالي في الاحياء : « ولعلهـا أرادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها ، وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وأرادت بحبه لمـا هو أهل له الحب لجمـاله وجلاله الذي انكشف لهـا ، وهو أعلى الحبين وأقواهما » ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله حيث قال حاكيا عن ربه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) .

وعلي وتره عزف بعضهم قوله :

بحق الهـوى يا أهل ودي تفهمـوا
لسـان وجـود بالوجـود غريب
حـرام علي قلب تعـرض للهـوى
يكون لغـير الحـق فيـه نصـيب
ليس في القـلب والفـؤاد جميعـا
موضـع فارغ يـراه الحبيب
هـو سـؤلي ومنيتي وحبيبي
وبـه مـا حييت عيش يطيب

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٤ ص ١٥٣ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان .

وإذا مـا السـقام حـل بقلبى
لم أجـد غـيره للسـقم طبيب (١)

وعزف عليه ابن الفارض معزوفاته الرائعة فى الحب الالهى انه شـعر الجمال النفسى ، أو كما اصطلح على تسميته بشعر « الغـزل العذرى » .

وسواء أتأثر هؤلاء الشعراء بشعر غيرهم من الأمم الأخرى ، أم تأثر به غيرهم فان هذا الشعر أضحى الصورة المثلى التى التزمت جانب الفضـيلة ، والتى أبرزت لنا شـعراء عفوا عن المحارم ، وترفعوا عن الدنايا ، وارتقوا بعاطفتهم ، لتتعمق فى أسرار الخلق ، ولتصف من المرأة زوايا لم تكن مألوفة عند العرب فى العصر الجاهلى ، ولتجعل من الغزل غرضا مستقلا ، بل لتجعل له شعراء جعلوه منهجهم وغايتهم .

أما اللون الثانى فهو ذلك الشـعر الذى قاله الشعراء تعبيرا عن قصصهم النسائية ، أو هياما ووجدا بالمرأة ، أو وصفا لما حـدث بينهما من لقاءات نعموا فيها بالجمال ، وتمتعوا بالقرب والوصال فكانت المادية طريقه ، والرغبة العارمة غايته وسبيله انه « الغزل اللاهى الذى عبر عن طابع الحياة الجديدة ، فيه ميوعه واستهتار ، وقصص شعرى يظهر فيه تهالك النساء على الرجال » (٢) .

انه الشعر الذى يمثل الردة المـادية الى ما كان عليه الغـزل فى العصر الجاهلى ، وأى لون منه ؟؟ انه اللون الذى يمثـل شعر امرىء القيس

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٤ ص ١٨٥ ط دار الكتاب العربى – بيروت لبنان .

(٢) د . محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٢٦ المرجع نفسه .

بما فيه من مجون وتعهر . وبما فيه من هتك للحرمات ، وتهجم على المخدرات .

واذا كان لنا أن نحدد البيئة التى نشأ فيها كل لون من هذين اللونين فاننا نستطيع أن نقول : ان الغزل العذرى نشأ فى البادية ، فقد أذكى جذوته تلك الطبائع البدوية الأصيلة ، أما الشعر اللاهى فقد احتضنته حواضر الجزيرة العربية ، وخاصة مكة والمدينة تلك الأماكن التى استقبلت الأعداد الهائلة من الأسرى الذين أشاعوا فيها جوا من المتعة تمثل فى فن الغناء . وما أحدثوه من فنون أتوا بها من مجتمعاتهم .

لقد أصبح الغزل — اذن — بنوعيه فنا مستقلا ساعد على انتشاره — أيضا — « فن الغناء الذى كان استجابة لدواعى الترف والفراغ فى البيئة الجديدة ، وقد نهض بفضل المغنين والمغنيات من الموالى ، وقد ساعد الفرس على النهوض بفن الغناء وموسيقاه عند العرب ، اذا لم يكن هؤلاء يعرفون منه سوى الحداء والنشيد ، وكان سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم يستمع الى البنائين من الفرس فى مكة وهم يغنون على بنيانهم ، فما يستحسنه من غنائهم يأخذه وينقله الى الشعر العربى ، ثم يصوغ على نهجه » (١) .

وقد يكون الغناء من الأسباب التى دفعت هؤلاء المتذوقين للشعر أن يوجهوا الشعراء الى الأعاريض التى يجب استخدامها حتى يتفق نتاجهم وتلك الألحان التى تصاحب الغناء ، لذلك يقول ابن رشيق : « مقود الشعر الغناء » لقد امتدح المتذوقون للشعر فى هذه الفترة ، أن تكون أعاريضه موسيقية ذات نغم محس ، يقال ان ذا الرمة قد قدم

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٢٧ المصدر نفسه .

الكوفة ، ودخل مسجدها فمر ببصره الكميت والطرماح فقصدها ، ثم جلس وقال للكميت : أسمعنى شيئا يا ابا المستهل فأنشده قوله :

أبت هذه النفس الا ادكارا

حتى أتى على آخرها ، فقال ، أحسنت يا أبا المستهل فى ترقيص هذه القوافى ، وتعلم عقدها .

ان الشعر الذى يتفق والغناء هو شعر الغزل . فهو الشعر الذى يمكن به جذب السامعين وتطويعه للألحان الموسيقية ، لذلك يقال : ان جريرا عندما ذهب الى المدينة ، وطلبوا منه أن يسمعهم شعرا لم يفعل ذلك وقال لهم : يا أهل المدينة انما يعجبكم النسيب . فهو يعلم أن الشعر التقليدى فى المدح أو الهجاء ، أو الرثاء لم يعد يروى غلة أهل المدينة أولئك الذين ألفوا لونا خاصا من الشعر استعذبته أسماعهم ، وطوعوه لألحانهم .

وقد يمكننا معرفة السبب الذى دفع سكان البادية الى اللجوء الى الشعر العـــذرى ، واتخاذه منهجا يعزفون عليه أنغامهم الرقيقة التى مثلت طبع تلك البيئة ، وجعلت الشعراء يظهرون ما يعتمل فى قلوبهم من حرقة الجـــوى ، وتباريح الوجـــد ، وهم لا ينـــالون ممن يحبـــون الا ما ينـــاله الرجل العفيف ساعة أن تجمعه بمن يحب أوقات يعـــلم أن الله ثالثهما .

ان السبب الذى حدا بهؤلاء الشعراء المحبين الى شعرهم ليس هو ما وجدوه لديهم من حب لا يمكنون فيه من قضاء رغبتهم مع من يحبون ، بل انهم وضعوا من يحبون فى مواضع الرفعة ، ونأوا به عن الدنايا ، وابتعدوا به عن النزول الى مهاوى الرذيلة ، وبذلك تفردوا عن غيرهم من المحبين .

وهذا ما يفسر لنا ذلك الموقف الذى وقفه عبد الرحمن القس (١) الذى كان من أعبد اهل مكه ، فقد هام بسلامه المغنيه «فقد سمع غناءها يوما على غير تعمد منه لذلك ، فبلغ غناءها منه كل مبلغ ، فرآه مولاها فقال له : هل لك أن أخرجها اليك ، أو تدخل فتسمع : فأبى ، فقال مولاها : أنا أقعدها فى موضع تسمع غناءها ولا تراها ، فأبى ، فلم يزل به حتى دخل فأسمعه غناءها فأعجبه ، فقال له : هل لك فى أن أخرجها اليك ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه ، فتغنت ، فشغف بها ، وعرف ذلك أهل مكة ، فقالت له يوما : أنا والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك . قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال : وأنا والله أحب ذاك . قالت : فما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال . قال : انى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول الى عداوة ، ثم قام وانصرف وعاد الى ما كان عليه من النسك وقال من فوره فيها :

ان التى طرقتـــك بين ركائب
تمشى بمزهـــرها وأنت حـــرام
لتصـيد قلبك أو جـــزاء مودة
ان الرفيـــق له عليـــك زمام
باتت تعللنـــا وتحسب أننـــا
فى ذاك أيقـــاظ ونحـــن نيـــام
حتى اذا سطع الضياء لنـــاظر
فـــاذا وذلك بيننـــا أحـــلام

(١) هو عبد الرحمن بن أبى عمار من بنى جشم بن معاوية كان منزله بمكة ، وكان من أعبد أهلها . الأغانى جـ ٨ ص ٣٣٥ .

قد كنت أعزل فى السفاهة أهلها
فأعجب لمـا تأتى بـه الأيـام
فاليـوم أعذرهم وأعلم أنمـا
سبل الضلالة والهدى أقسام (١)

وفيها يقـول :

ألا قل لهـذا القلب هـل أنت مبصر
وهل أنت عن سـلامة اليوم مقصر
ألا ليت أتى حين صارت بها النوى
جليس لسلمى كلمـا عج مزهر (٢)

ولعلك تدرك من هيام القس بسلامة ، ومن قوله لها « أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول الى عداوة » ما أحدثه الاسلام فى قلوب هؤلاء المحبين الذين عفوا عن ارتكاب الحرام لا عن قصـور منهم ، أو قسرا عنهم ، وانما أتى ذلك عن رغبة منهم كى يسموا بهذا الحب الى الطهر ، ويجعلوا هذه العلاقة مقدسة لا تكدرها هذه النزعات المـادية البغيضة .

« فتلك الروح لم تكن لتظهر الا فى مجتمع تأثر بالدين ، وتخللت العقيدة الاسلامية نفوس أهله ، وهذا عروة بن حزام ، وكان من أوائل من تأثروا بالاسـلام فى شعره ـ نزل ضـيفا على زوج حبيبته عفراء بالشـام ، فأكرمه الزوج ، وأحسن مثواه ، وخرج وتركه مع عفـراء يتحدثان ، فلما خلوا تشاكيا ، فطالت الشكوى ، وهو يبكى أحر بكاء ، ثم أتته بشراب ، وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل جوفى حرام

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . المصدر نفسه .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٣٣٦ . المصدر نفسه .

قط ، ولا ارتكبته منـذ كنت ، ولو استحالت حراما لكنت قد استحللته منك فأنت حظى من الدنيـا » (١) .

ثم يقول الدكتور محمد غنيمى هلال : « وذهبوا كذلك الى حسبان من قتل فى الجهاد الحب شهيدا كمن مات فى الجهاد فى سبيل الله ، وقد وقع هذا موقع الرضـا من نفوس ذوات المكانة من النساء فى المجتمع الاسلامى ، فقد رأين فيه سموا بمكانة المرأة ، ولهذا شجعن عليه ، فقد آثابت سكينة بنت ا حسين جميلا على شعره وفضلته على جرير والفرزدق وكثير : قائلة فى تعليلها لذلك التفضـيل : انه جعل حديثنا بشـاشة ، وقتلانا شهداء ، وتشير بذلك الى قول جميل :

لكـل حديث بينهن بشـاشة
وكل قتيـل عنـدهن شـهيد
يقولون جاهد يا جميـل بغزوة
وأى جهـاد غـيرهن أريـد

واذا كان الاسلام قد أثر بمبادئه العامة التى ذكرنا فقد ذهب الى أبعد من ذلك ، اذ قد نص على أمثلة من طهر النساء ، واعتبر مريم لدلك مثـلا أعلى للنساء الطاهرات ، « يا مريم ان الله اصطفاك وطهـرك واصطفاك على نساء العالمين » .

بل ان القرآن ضرب مثلا اعفة المؤمن فى قصة «يوسف» و «زليخا» فكان يوسف مثال الصبور على محن الاغراء خوفا من الله ، كذلك عد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين من يظلهم الله يوم القيامة :

---

(١) د. محمد غنيمى هـلال : الحياة العاطفية ص ٣٣ نقـلا عن الأغانى .

« رجل دعته ذات منصب وجمال الى نفسها فقال انى أخاف الله ، بل يروى أن الرسول قال : « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » .

وهذا ادراك جديد للحب يضعه الاسلام بين يدى المؤمنين من شعراء العرب لم يكن لأسلافهم به عهد ، فليس المحب اذن لاهيا عابثا حين يعانى آلام حبه ، ما دام عفا طاهر الغاية ، بل انه مأجور مثاب من الله ، وقد يرتقى الى مرتبة الشهداء الذين كتبت لهم الحسنى ، وفى هذا ما يفسر ادراك جميل على نحو ما سبق » .

فمسلك العذريين يقارن بمسلك الزهاد الأتقياء اذ أنهم وجدوا طريقا يوفقون فيه بين زهدهم ، ومطالب عاطفتهم ، وأطاعوا فى حبهم العف قلوبهم ودينهم ولهذا كان « عروة بن أذينة يحيى بن مالك ، وعبد الرحمن بن أبى عمار القس من الزهاد والعشاق معا » (١) .

واذا كان بعض الزهاد كعبد الرحمن القس قد قال شعرا فى هذا المجال ، وقد ضرب المثال الرائع فى الزهد فى الوصال على الرغم من أن سلامة قد عرضت عليه وصلها ، وحثته على قربها فان الشاعر الذى صرف شعره وحياته فى ذلك هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى الذى كان شاعرا فصيحا مقدما جامعا للشعر والرواية ، والذى كان راوية لهدبة بن خشرم ، وكان هدبة شاعرا راوية الحطيئة ، وكان كثيرا راوية لجميل ، وكان يقدمه على نفسه ، ويتخذه اماما واذا سئل عنه قال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون الا منه » (٢) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ٣٣ ـ ٣٥ المرجع نفسه .

(٢) الأغانى ص ٨ ص ٩٠ وما بعدها ، المصدر نفسه .

كان جميل يهوى بثينة التى تلتقى معه فى النسب ، وكان صادق العاطفة ، ولا يستطيع أحد أن يجاريه فى هذا المجال ، واذا كانت بعض الأسماء قد اقترنت بمثل هذه القصص فانها لا تصل الى ما وصل اليه جميل حتى ان ابن سلام يقول : « وكان لكثير فى التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم عليه [وعلى أصحاب النسيب جميعا] فى النسيب ، وله فى فنون الشعر ما ليس لجميل ، وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كثير يتقول ولم يكن عاشقا ، وكان راوية لجميل » (١) .

ويروى صاحب الأغانى هذه الرواية عن ابن سلام ، ثم يضيف اليها قوله : « وكان الناس يستحسنون بيت كثير فى النسيب :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى ليلى بكل سبيل

قال : ورأيت من يفضل عليه بيت جميل :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما
قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

قال ابن سلام : وهذا البيت الذى لكثير أخذه من جميل حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأما
تمثل لى ليلى على كل مرقب (٢)

وقد كان جميل يحب بثينة حبا عفا ، وكانا يلتقيان ، فلا يحدث بينهما ما يحدث بين المتحابين ، فقد روى أن أمة لبثينة سعت بها الى

---

(١) ابن سلام الجمحى ـ طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٤٥ المصدر نفسه .

(٢) الأغانى حـ ٨ ص ٩٥ ، ٩٦ المصدر نفسه .

أبيها وأخيها ، وقالت لهما : « ان جميلا عندها الليلة ، فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجرة منها يحدثها ويشكو اليها بثه ، ثم قال لها : يا بثينة أرأيت ودى اياك ، وشغفى بك الا تجزينه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين ، فقالت له : يا جميل أهذا تبغى ؟؟ والله لقد كنت عندى بعيدا منه ، ولئن عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهى أبدا ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لأعلم ما عندك فيه ، ولو علمت أنك تجيبننى اليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد أو ما سمعت قولى :

وانى لأرضى من بثينة بالذى
لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

قال : فقال ، أبوها لأخيها ، قم بنا فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها ، فانصرفا وتركاهما » (١) .

ولقد روى ابن قتيبة عن سهل بن سعد الساعدى أو ابنه عباس : لقينى رجل من أصحابى فقال : هل لك فى جميل فانه ثقيل ؟ فدخلنا عليه وهو يكيد بنفسه (يجود بها فى حال النزع والموت) وما يخيل لى أن الموت يكربه (يشق عليه) فقال : ما تقول فى رجل لم يزن قط ، ولم يشرب خمرا قط ، ولم يقتل نفسا حراما قط يشهد أن لا اله الا الله ؟

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٠٥ المصدر نفسه .

فقلت : أظنه والله قد نجا ، فمن الرجل ؟ قال : انا • قلت : والله ما سلمت، وأنت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة ؟ قال : انى لفى آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فلا نالتنى شفاعة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان كنت وضعت يدى عليها لريبة قط • قال : فأقمنا حتى مات » (١) •

ان هذين الخبرين اللذين ساقهما الأصفهانى وابن قتيبة يجعلان من يعرض لحياة جميل بن معمر يرى فيها أثرا لما احدثه الاسلام فى عقلية أولئك العرب الذين وجدوا فيه حثا على الأخلاق الفاضلة ، والمبادىء الراقية ، اقد أتت مبادىء الاسلام لتربى فى هؤلاء العرب حواس يبتعدون بها عن ماديتهم البغيضة ، ويرتفعون الى روحانية مثلى تجعلهم على يقين بأن متع الدنيا لا بد زائلة ، وأن نعيم الآخرة لا يزول •

ولا يمكن لنا بحال أن نؤمن بما يثيره المغرضون من اتهامات لهؤلاء المحبين فهؤلاء « المتقولون قصرت مروءتهم عن أن ترى فى الانسان غير حيوانيته وشهوانيته ، وشبقه ، ورفض منطقهم العبى ادراك كله تلك الشعلة المقدسة التى اذا ألهبت القلب ، وأدمت العين ، أعمت أبصار المحبين عن مجالات الجسد ، وفتحت بصائرهم على ألوان السمو الروحى ، والعلاء العاطفى » (٢) •

واذا كان لنا أن نختار شعرا لجميل نقدمه لقارىء هذا البحث فاننا نقدم له تلك القصيدة التى تكشف عن جانب من أخلاق هؤلاء المحبين ، فهم يودون القرب والوصل ، ولكنهم لا ييأسون منه ، وان أبعدتهم

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء حـ ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ • تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف •

(٢) فوزى عطوه • محقق ديوان جميل ص ٨ دار صعب بيروت •

ظروف الحياة ا وحالت دون لقائهم قوانين المجتمع ، ثم هم لا يستجيبون لأحاديث الواشين ، ولا يستبدلون بحبهم بديلا ، وهم يحبون من حبيباتهم التمنع وعدم الاستجابة ، ويرون فى ذلك طهرا وعفة . يقول جميل :

أبثين انك قد ملكت فأسجحى
وخذى بحظك من كريم واصل
فارب عارضة علينا وصلها
بالجد تخاطه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تستر
حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو أن فى قلبى كقدر قلامة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى

ثم يقول واصفا أحاديث العذال ، وكلمات اللائى كن يرين منه التخلى عن ذلك الحب العقيم ، والبعد عن تلك التى لا يحظى منهابقرب، وأنه لا يستمع لو شايتهن ، فهو باق على حبها لا يفارقه .

ويقلن انك قد رضيت ببباطل
منها : فهل لك فى اعتزال الباطل ؟
ولباطل ممن أحب حديثه
أشهى الى من البغيض البازل
ليزلن عنك هواى ثم يصلننى
واذا هويت ، فما هواى بزائل

ثم يتحدث الى بثينة تلك التى صادت حبالها قلبه ، ولكنها تدللت عليه عندما رأته متمسكا بحبها ، فأطاعت فيه كلمات الواشين فهجرته لكنه لم يستمع الى أقوال العاذلات ، وتركهن يرجعن بذل الندم ، ومرارة التحسر ، فيقول :

وتثـــاقلت لمـــا رأت كلفى بهـــا
أحبب الى بذاك من متثـــــاقل
وأطعت فى عواذلا فهجـــرتنى
وعصيت فيك وان جهدن بفاعل
فرددتهن وقـــد سعين بهجركم
لمـــا ســـعين له بأفوق ناصـــل
يعضـــضن من غيظ على أناملا
وددت لو يعضضن صم جنادل
ويقلن انـــك يابثين بخيلـــــة
نفسى فداؤك من ضنين باخل(١)!

ونختم جولتنا مع جميل بن معمر بهذه القصيدة التى تتردد دائما فى الأوساط الأدبية ، والتى قالها جميل وهو يفارق ديار بثينة الى مصر التى قضى فيها نحبه فى ولاية الأمير عبد العزيز بن مروان وقد بدأها بقوله يتحسر على شباب مضى ، وعمر انقضى :

ألا ليت ريعان الشـــباب جديد
ودهـــــرا تولى يابثين يعـــود

ثم قوله مبديا ألمها لفراقه ، وأسفها على سفره الى مصر :

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
وقد قربت نضـــوى أمصر تريد ؟
ولا قولها : لولا العيون التى ترى
لزرتك فاعذرنى فدتك جدود (٢)

---

(١) الأغانى حـ ٨ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، والديوان ص ٨٧ ، ٨٨ المصدر نفسه .

(٢) الديوان ص ٢٥ وما بعدها ، والأغانى جـ ٨ ص ١٠٣ ١٠٤ .

ثم قوله يبثها جواه وألمه ، وتبثه مثل ذلك ، ولكن فى تمنع وعفاف:

اذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى
من الحب قالت : ثابت ويزيد
وان قلت ردى بعض عقلى أعش به
تولت وقالت : ذاك منك بعيد

ثم قوله يتشوق الى ديار بثينة عله يحظى منها بقرب :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى انى اذا لسعيد
وهل ألقين فردا بثينة مرة
تجود لنا من ودها وتجود
علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
الى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفنيت عمرى بانتظارى وعدها
وأبليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

ثم قوله مقررا أن جهاد نفسه ، واستمراره على حبها يعدل الجهاد فى سبيل الله :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

ولعلك أيها القارىء قد تصورت هذا الشعر الذى قيل من هؤلاء المحبين الذين حلقوا فى الحون العلوى ، وجعلوا يهيمون بمن يحبون فى أسلوب ملائكى التفكير سماوى التعبير ، اسلامى النزعه « فالحب العذرى عاطفه قويه مشبوبه يهيم فيها المحب بحبيبته ، ويرجو الحظوة بوصالها ولكن سيتضاءل لديه النظرة الى المتع الحسية ، اذ يطغى عليه حرص المحب على استدامه عاطفته فى ذاتها ، وعلى اعتزازه بهـــا مع التضحية فى سبيل الابقاء عليها بما يستطيع بذله من جهد وآلام ،فليس الحب العذرى رهين الظفر بمتع الحس ، يبقى ببقاء الأمل فيها ، ويفنى بتعذر منالها ، ولكنه يسمو على هذه المتع التى تهون لدى المحب بقدر ما يعظم شأن العاطفة فى ذاتها ، ووسيله السمو بهذه العاطفة على هذا النحو هو الحرمان ، أى حرمان المحب من الظفر بحبيبته حين يتعلق بها ، وقد يكون هذا الحرمان أراديا يدفع اليه الزهد فى المحــرمات ، والتقوى من الله ، متى تعذرت السبل المشروعة للوصال ، وقد يكون الحرمان راجعا أولا الى أسباب اجتماعية ، وتقاليد سائدة خارجة عن ارادة المحب الذى لا يسلو ــ أمام هذه العقبات عن وجه حبــه ، بل يتسامى به ، ويدوم عليه ، ويستطيب العذاب فى سبيله والحـــرمان فى كلتا حالتيه السابقتين سبيل التسامى بهـــذه العاطفة متى كـــانت صادقة عفة ، لان الحرمان ــ اراديا كان أو غير ارادى ــ هو ســـبب دخول هذه العاطفة ميدان الأدب والفن بعامة ، كى تكتسب معـــانى انسانية ، أو صيغة فنية ، أو تشف عن نبل روحى ، وســـمو خلقى ، فتتجاوز الدائرة المادية الضيقة التى تسف فيها الى معناها الفريدة ، ولكن الحرمان لا يؤدى الى التسامى الا اذا صدقت العـــاطفة ، وكان صاحبها على قدر من سمو الخلق يمكن أن يعلو به عن الحاجة المـــادية العابرة ، ولا يتاح مثل هذا التسامى الا للصفوة التى تؤمن بقيـــم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذرى عف ، لأنه حب حرم الحرمان ، ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأن صـــاحبه

يحرص فيه على القيم الانسانية والصلات الخلقية ، ولا يقف عند مجرد الحسرة والندم على الحرمان ، ولذا لا يتصور أن ينشأ مثل هذا الحب الا فى مجتمع ذى عقائد روحية تيسر سبيل هذا التسامى (١) »

أما الجانب الثانى الذى نعرض له فى هذا المجال ، فهو ذلك القطاع من الشعر الذى نشأ فى حواضر الجزيرة العربية ، والذى كان أبطاله اولئك الشعراء الذين غمرتهم المادة ، وسيطرت عليهم الشهوة ، فأطلقوا لشيطان الشعر العنان ، وجعلوا يهيمون بمن يحبون ،وسواء أكان ذلك منهم واقعا أم تخيلا فقد أثرى هؤلاء الشعراء شعر الغزل بقصائد عكفوا على نظمها ، لتغنى بألحان أولئك المغنين الذين وفدوا على هذه البيئة التى رأوا فيها رواجا لفنهم ، وتشجيعا لألحانهم •

ومن عجب أن نجد المتناقضات تملأ منعطفات بيئة المدينة ومكة ، أو قل بيئة الحجاز بعامة ، ففى الوقت الذى عكف فيه علماء مكة والمدينة على دراسة القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد نشأ فى هذه الحقبة حبر الأمة عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنه ــ والعالم الزاهد الورع سعيد بن المسيب ، وغيرهما من علماء التفسير والحديث الذين تركوا لنا نتاجا رائعا فى هذين المجالين كانت محصلته تلك الاراء المذهبية التى تمثلت فى فقه امامين عظيمين من أئمة التشريع الاسلامى ، امام أهل المدينة مالك بن أنس ، وامام مكة ومصر من بعد الشافعى ، فى هذا الوقت الذى شهد تلك النهضة العلمية والتعليمية نجد اللهو يعم قطاعا آخر من أهل الحجاز ، أو قل انصرف بعض شبابه الى اللهو ، وانغمسوا فى ارضاء رغباتهم ، أو قل انهم غرقوا فيه حتى آذانهم ، أو كما يقولون : شربوا حتى الثمالة •

---

(١) د• محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ١٧ ، ١٨ المرجع نفسه •

واذا كانت آراء المحدثين قد تناقضت فى هذا المجال ، أو قد اضطربت فى تحليل تلك الظاهرة ، وفى تعليل هذا الاتجاه المادى الذى سيطر على قطاع عريض من شباب الحجاز ، فقد عزا بعض المحدثين ذلك الى ان الامويين كان لهم دور فعال فى صرف شباب الحجاز الى ذلك اللهو حتى لا يفكرون فى مسار الدولة السياسى ، وحتى لا يكون انفراغ سببا فى ثوراتهم على حكم الامويين ، وذلك امر — وان كان فيه جزء ضئيل من الحقيقة ، لكنه لا يمكن أن يمثل الحقيقة كاملة ، ولو كان الأمر كذلك لما وجدنا عمر بن عبد العزيز — عندما ولى الخلافة يأمر بأن يأتيه عمر بن أبى ربيعة والأحوص موثقين ، فيعاتبهما وينفيهما وقيل ان عمر عاهده على ألا يعود الى مثل شعره ، أما الأحوص فقد نفاه الى « دهلك » بالبحر الأحمر » (١)

وحدث أن حج سليمان بن عبد الملك فأرسل الى عمر بن أبى ربيعة ، وسأله عن أبيات قالها ، وأخرج الى الطائف ؟ حتى تقضى الناس حجهم (٢) » .

فلو كان الأمويون رغبوا فى مثل هذا العمل لشجعوا عليه ، ولما وقفوا ضده فى كثير من المواقف ، ولهذا فاننا لا نوافق الأستاذ الدكتور محمد غنيمى هلال فى قوله : « ولما فشل الحجاز فى استرداد مكانته انطوى على نفسه ، وآثر الامساك عن الخوض فى المسائل السياسية، وانصرف علماؤه الى البحث فى مسائل الدين ، واستنباط الأحكام ، واتجه شعراؤه الى انفاق نشاطهم فى اللهو والتعبير عن حياتهم الماجنة المرحة (٣) » .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ١٩٠ ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ١٩٠ المصدر نفسه

(٣) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ٢٣ المرجع نفسه .

أما الدكتور شوقى ضيف فقد أصاب عندما عقد مقـــارنة بين الشعر فى العصر الأموى ، وبين تلك الحضارة التى طرأت على هـــذا المجتمع ، فاستجاب لها ، وتأثر بها ، وصرف شعراؤه شـــعرهم الى خدمتها ، والعمل على ازكائها فهو يقول : « وأكبر الظن أن هذه البيئـــة من بيئات الشعر فى عصر بنى أمية قد اتضحت لنا ، فهى من ناحية بيئة تحضرت ، وأترف ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقة فى الشعور ، ورقة فى الحس لم تكن لآبائهم ، لسبب طبعى ، هو أنهم أبناء حضارة جديدة، وعصر جديد ، فيه ترف ونعيم ، وفيه هذه التأثيرات الحضـــارية التى ترهف الحس ، وترقق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حسا وشعورا خالصين » •

« وطبيعى أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشـــــعر الجاهلى القديم ، فكل من يتابع درس شعر الحجازيين لهـــذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقل فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعـــد اللون الصارخ فى الشعر ؟ فان أكثر الحجازيين لم يكونوا فى حاجة الى التكسب بشعرهم ، انما اللون الذى يستنفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقة الحس ، ورقة الشعور ، وأيضا فانه يتلاءم مع فـــن الغناء الجديد » •

ثم يقول : « ومن هنا كان أكثر الشعراء فى الحجاز لهـــذا العصر شعراء حب وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبى ربيعة والعرجى وابن قيس الرقيات فى مكة ، والأحوص فى المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعا فى التغنى بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا فى ذلك عن رقة حس شديدة ، وكان شعرهم يتحول فى كثـــير من جـــوانبه الى أنفاس خالصة (١) » •

---

(١) د• شوقى ضيف : التطور والتجديد فى العصر الأموى ص ٢٨ ط دار المعارف •

ولعل ذلك الكلام له وجاهته فاننا نرى * فى كثير من العصور أن نهضة الغناء تؤثر فى شعر الغزل ، أو تدفع اليه فيتعاونان معا على خلق جو عاطفى وفنى ، وقد حدث ذلك فى العصر الحديث عندما أفـــرد شعراء شعرهم الى الغناء كى تشدو به فنانة العصر الحديث أم كلثوم، فأحمد رامى كان سباقا الى مثل هذا اللون من شعر الغزل ، وكان هـو وأم كلثوم رفيقى غناء ، هذا يحدو بشعره ، وتلك تشدو بصوتها •

والقارىء لأخبار عمر بن أبى ربيعة والعرجى وابن قيس الرقيات والأحوص فى كتاب الأغانى والشعر والشعراء ، وطبقات فحول الشعراء وغيرها من الكتب التى عرضت لنتاج هؤلاء الشعراء يجد أن كثيرا من شعرهم تغنى به المغنون ، وشدا بنغمه الشادون ، بل ان النـاس جميعا كانوا يرددون هذا الشعر ، ويطربون لسماعه ، فولد فيهـم ذوقية متفردة •

أما عمر بن أبى ربيعة فقد أفرد له صاحب الأغانى جانبا كبيرا من من الجزء الأول (١) ، بل ان صاحب الأغانى لم يقدم عليه الا ترجمتين فقط ، هما:ترجمة أبى قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط(٢)، وترجمة معبد بن وهب المغنى (٣) •

وكأنما أراد عمر بشعره ــ كما يقول الدكتور شوقى ضيف ــ كله

---

(١) أخبار عمر بن أبى ربيعة فى الأغانى الجزء الأول من ص ٦٦ حتى ص ٢٥٦ انظر الأغانى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب •

(٢) الأغانى جـ١ ص ١٣ المصدر نفسه •

(٣) الأغانى جـ١ ص ٣٩ المصدر نفسه •

الغناء ، فغزله فى حقيقة أمره أغان ، ولعل ذلك مما جعله كله مقطوعات الا بعض قصائد قليلة جدا ، ومع ذلك غنيت ، أو غنى منها غير قليل من أبياتها ، ولم لا تغنى ، وقد كان عمر نفسه يعمل على ذلك ، فهو يقرب منه ابن سريج والغريض ، ويلزمهما ، حتى يؤلفوا جميعا مايشبه الجوقة ، فهو لا يذهب ولا يجىء الا مع أحدهما أو معهما ، ويظهر أنه كان كثير البذل لمن يغنون فى شعره فمما يروى أنه أعطى ابن سريج فى تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار ، كما أعطى الغريض فى تلحين أخرى خمسة آلاف درهم (١) » .

ويبدو أن المحافظين من العلماء قد وقفوا معارضين لذلك اللون من الغزل الذى وجدوا فيه دعوة الى الرذيلة ، واستباحه لحرمات المسلمين . حتى انهم ربطوا بين ميلاد عمر بن أبى ربيعة ومقتل سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقالوا : انه ولد فى الليلة التى استشهد فيها الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، وفرق كبير بين عمر الراحل ، وعمر الوليد ، فقد روى «الأغانى بسنده (جـ١ ص٨٦) عن الحسن البصرى أنه قال : « ولد عمر بن أبى ربيعة ليلة قتل عمر بن الخطاب ــ رحمة الله عليه ــ فأى حق رفع ، وأى باطل وضع» فالقارىء لهذه العبارة يدرك موقف العلماء من هذا الغزل ، وكأنهم أرادوا وسم هذا الشعر بميسم المروق من الفضيلة ، والانغماس فى الرذيلة .

وقد روى الأغانى عن هشام بن عروة قوله : « لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبى ربيعة لا يتورطن فى الزنا تورطا وأنشد :

---

(١) د. شوقى ضيف : التطور والتجديد ص ٢٣٨ .

لقـــد أرسـلت جـاريتى
وقلت لهـا خـذى حذرك
وقـــولى فى ملاطفـــة
لـزينب : تولى عمرك (١)

وقد ورد هذان البيتان أيضا فى الأغانى وورد بعدهما بيتـــان آخران هما :

فهـزت رأســـها عجبـا
وقـالت : من بذا أمـرك
أهـذا سـحرك النسـوا
نِ قـد خـبرتنى خـــبرك

ولقد روى الأغانى بسنده ــ أيضا ــ عن أبى المنوم الأنصارى قوله « ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة (٢) » .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه ــ فعلا ــ ويلح على من يتتبع أخبار عمر بن أبى ربيعة هو : هل كان عمر بن أبى ربيعة واقعيـــا فى شعره ؟ وهل كل ما قاله قد عاشه ؟ أم أن الخيال فعل به الأفاعيـــل فقال الشعر يصور به ذلك الخيال ، ويرسله غناء يتردد فيمس شغاف قلوب الشباب العاشق الولهان ؟ .

لقد روى الأغانى روايات مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة بعضها يثبت فيه فعله لكل قول قاله ، وبعضها ينفى فيه فعل كل ما قاله ، فمن

---

(١) الأغانى ١/٧٩ المصدر نفسه .
(٢) الأغانى ١/٨٠ المصدر نفسه .

ذلك ما رواه بسنده قال : « انى لأطوف بالبيت فاذا أنا بشيخ فى الطواف ، فقيل لى : هذا عمر بن أبى ربيعة • فقبضت على يده وقلت له : يا بن أبى ربيعة فقال : ما تشاء ؟ قلت : أحل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ قال :اليك عنى • قلت أسألك بالله : قال : نعم ، وأستغفر الله (١) » •

وقد روى الأغانى ــ أيضا ــ قوله : « أشرف عمر بن أبى ربيعة على أبى قبيس وبنو أخيه معه وهم محرمون ، فقال لبعضهم : خذ بيدى ، فأخذ بيده ، وقال : ورب هذه البنية ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقله لى : وما كشفت ثوبا عن حرام قط ، قال ولما مرض عمر بن أبى ربيعة مرضه الذى مات فيه جزع الحارث جزعا شديدا ، فقال عمر : أحسبك انما تجزع لما تظنه بى • والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط• فقال : ما كنت أشفق عليك الا من ذلك ، وقد سليت عنى (٢) » •

ولعل هذين الخبرين اللذين رواهما الأغانى يجيبان على تساؤلنا السابق ، واذا كنا نميل الى جانب القاعدة التى تقول : ادرءوا الحدود بالشبهات ، فاننا نميل الى أن عمر بن أبى ربيعة قد قال هذا الشعر يحاول به بعث جو من الحياة العاطفية ، حتى يغنى هذا الشعر ،فيحدث ممتعة للسامعين ، ان عنصر الخيال باد فى غراميات عمر بن أبى ربيعة ولعله قد سلك المنهج الذى سلكه من قبل امرؤ القيس الذى أشاع فى العصر الجاهلى جوا من حياة اللهو والمجون ، وكل غرامياته لا تعدو أن تكون نسيجا من الخيال أوحى به اليه شيطان شعره •

أما شعر عمر بن أبى ربيعة وشاعريته ، فقد صارت مضرب المثل حيث أن الأغانى يروى ــ أيضا ــ أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم

---

(١) الأغانى ١/٧٩ المصدر نفسه •

(٢) الأغانى ١/٨١ المصدر نفسه •

فى كل شىء عليها الا فى الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر ابن أبى ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضا ، ولم تنازعها شيئا (١) » .

ولكنه الشعر الذى صرفه لربات الحجال ـ كما يقول ، والذى أضحى به يمثل علامة بارزة فى سير ذلك الفن الذى صار به فنا مستقلا ، حتى جعل الفرزدق يقول عندما سمع شيئا من نسيبه هذا الذى كانت الشعراء تطلبه ، فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقع هذا عليه (٢) » .

أما جرير فانه كان لا يعترف لعمر بن أبى ربيعة بالشاعرية ، أو كان يقول : هذا شعر تهامى اذا أنجد ، حتى أنشد قوله :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت
فيضحى ، وأما بالعشى فيخصر
قليلا على ظهر المطية ظله
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة
وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها
فليست لشىء آخر الليل تسهر

فقال جرير : « مازال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر (٣) »

---

(١) الأغانى ١/٧٨ المصدر نفسه .
(٢) الأغانى ١/٨٠ المصدر نفسه .
(٣) الأغانى ١/٨٦ المصدر نفسه .

والقصيدة هذه من عيون شعر عمر بن أبي ربيعة ، وقد قيل انه أنشدها سيدنا عبد الله بن عباس فحفظها (١) » .

ولقد حاول صاحب الأغانى أن يسوق بعض الأخبار التى تفاضل بين عمر بن ابى ربيعه وبين غيره من الشعراء الذين صرفوا شعرهم للغزل ، فقد روى صاحب الأغانى بسنده عن عبد الجبار بن سعيد المساحقى عن أبيه قال : « دخلت مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع نوفل بن مساحق فانه لعتمد على يدى اذ مررنا بسعيد ابن المسيب فى مجلسه ، وحوله جلساؤه ، فسلمنا عليه ، فرد علينا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد من أشعر : صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس الرقيات أو عمر بن أبى ربيعة ، فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خليلى ما بال المطايا كأنما
نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صبابة
فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وانتحى
بهن فما يألو عجول مقلص
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا
اذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ويقول صاحبك ما شئت ، فقال له نوفل : صاحبكم أشعر فى الغزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر قال : سعيد : صدقت ، فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل سعيد يستغفر الله ، ويعقد بيده ، حتى وفى مائة . فقال البكرى فى حديثه عن عبد الجبار قال : مسلم فلما انصرفنا قلت لنوفل : أتراه استغفر الله من انشاد الشعر فى مسجد رسول الله —

---

(١) الأغانى ١/٧٦ المصدر نفسه .

صلى الله عليه وسلم : فقال ، كلا ، هو كثير الانشاد والاستنشاد للشعر فيه ، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه (١) » .

ومهما يكن من أمر عمر بن أبى ربيعة ، ومهما يكن من آراء قيلت فيه ، أو قالها هو عن نفسه ، وسواء أعاش غرامياته ، أم كانت من وحى الخيال فان القارىء لشعره يرى فيه مادية قاتلة وتجسيدا لما كان يحدث بينه وبين صويحباته ، وانكبابا على اللذة ، ولا شك أن هذا الشعر من شأنه أن يثير فى قارئه غرائز مادية سما بها الاسلام ،وارتقى بالانسان ، حتى لا يصرف نفسه ، ليجرى وراء شهواته المادية .

ولعل القارىء لأبياته الآتية يدرك ما قام به عمر بن أبى ربيعة من شعر صرفه لتعميق المادية فى عقول الشباب ، فقد اجتمع جميل ابن معمر العذرى وعمر بن أبى ربيعة بالأبطح فأنشد جميل قصيدته التى يقول فيها :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى
بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميل وانني
لأقسم مالى عن بثينة من مهل

حتى أتى على آخرها، ثم قال لعمر : يا أبا الخطاب هل قلت فى هذا الروى شيئا ؟ قال : نعم قال : فأنشدنيه ، فأنشده قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها
فقربنى يوم الحصاب الى قتلى

---

(١) الأغانى ١/١١٧ ، ١١٨ المصدر نفسه .

فطارت بحد من سهامى وقربت
قرينتها حبل الصـــفاء الى حبلى

وفيها يقول :

فقالت وأرخت جانب الستر انما
معى فتحـــدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها مـــا بى لهم من ترقب
ولكن سرى ليس يحملـــه مثـــلى

فلمـــا اقتصرنا دونهن حديثنـــا
وهن طبيبات بحاجة ذى الشـــكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا
نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل
فقالت فـــلا تلبثن قلن تحـــــدثى
أتيناك وانسبن انسياب مها الرحل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب أنمـــا
أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى(١)

فقال جميل : هيهات يا أبا الخطاب • والله لا يخاطب النســـــاء مخاطبتك أحد (٢) » •

---

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٥٣ ط الهيئة المصرية العـــــامة للكتاب ١٩٧٨ م •

(٢) الأغانى ١/١١٩ ، ١٢٠ المصدر نفسه •

فقد ساق عمر بن أبى ربيعة قصة حدثت بينه وبين صويحباته ، وقد كان معها بعض النساء فاحتال حتى فهمن غرضـــه ، وانصرفن وتركنهما وحيدين يتناجيان ، وهو جانب لم يعرض له شعراء الغـزل العذرى ، واذا حدث وبقى أحد شعراء الغزل العذرى مع صاحبته فانه لا يفكر مطلقا فى النيل من عفافها وطهرها ، كما فعل عمر بن أبى ربيعة، بل أن الأبيات المتبقية من القصيدة لتوحي بكثير من المعـانى المـادية التى قصد اليها الشاعر قصدا ، وتعمد الوقوف عليها اما ابداء لجوانب الرغبة الكامنة فى قلبه ، أو محاولة منه لاذكاء ثورة الشـــهوة لدى سامعيه ، وفى كل فقد رغب عمر بن أبى ربيعة عن المبادىء السـامية والأغراض النبيلة للشعر ، والتى عمقها الاسلام فى قلوب معتنقيه .

لقد ولد شعر عمر بن أبى ربيعة وأضرابه من شعراء الغـــزل جوا من النقد ينهض بهذا اللون من الشعر ، ويجعلـه يؤدى دوره فى التعبير عن العواطف والأحاسيس ، ولم يكن هذا النقـد قاصرا على فئة معينة من النقاد ، أو المشتغلين بالدراسات الأدبية ، وانمـا كان الجميع يخوضون فى هذا المجال ، وكانت هناك مجالس أدبية تعقد ، ويتذاكر فيها الناس ذلك النتاج الذى تو د عن قرائح أولئك الشعراء . ومن بين هذه المجالس ما ذكرته قبلا من مجلس سكينة بنت الحسـين التى كانت تعرض فى مجالسها الأدبية لشعر جميل وغيره من شـعراء الغزل العذرى ، وقد أوردت لنا كتب الأدب قولها فى بيت جميل :

لكل حديث ينبهن بشـــاشة وكل قتيل عندهن شهيد

فقد روى أنها قالت : رحم الله جميلا ، فقد جعل الحديث الينـا بشاشة ، وقتلانا شهداء .

أما عبد الملك بن مروان فقد شارك فى نقد شعر الغزل ذلك الذى شغل به كثير من شعراء العصر الأموى ، ووجد بيئة فنية أحبته وألفته.

فقد « دخل الأقيشر على عبد الملك بن مروان ، وعنـــــده قوم فتذاكروا الشعر ، وذكروا قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فياويح دعد من يهيم بها بعدى

فقال الأقيشر : والله لقد أساء قائل هذا الشعر قال عبد الملك :فكيف تقول لو كنت قائله ؟ قال كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى ، فان أمت أو كل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبد الملك : والله لأنت أسوأ قولا منه حين توكل بها !! فقال الأقيشر : فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى فان أمت فلا صلحت هند لذى خلة بعدى

فقال القوم جميعا : أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم (١) »

لقد حاول عبد الملك ومن معه من الحاضرين أن يبتعدوا عن الدائرة التى وقع فيها نصيب لأنه اغتم كما يقول كثير لمن يفعل بها بعده ، وهو لا يكنى (٢) » فأتوا بمعانى أخرى ، وكل واحد منهما ــ أيضا ــ أدخل نفسه فى دائرة شبيهة بدائرة نصيب ، فالأقيشر أراد أن ينفى الأنانية

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٣٢٤ ط دار المعارف .

(٢) ابن رشيق : العمدة ١١٨/١ المصدر نفسه .

عنه ، وأن يدعى لنفسه حبا مجردا من الغرض ، فوكل بها شـــخصا آخر بعده يحل محله ، وعبد الملك بن مروان لم يعجبه هذا المعنى فأتى بمعنى آخر أعجب الحاضرين ، ولكن الأنانية بادية فيه •

وهناك نقاد آخرون ــ أيضا ــ كان لهم دور فى تقويم الشعر ، ونقد بعض المعانى التى قد يأتى بها الشعراء دون مراعاة لقواعد الفن وأصوله •

فقد « سمع ابن أبى عتيق قول عمر بن أبى ربيعة :

بينمـــــا ينعتننـــى أبصرننى
دون قيـــد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكـــبرى أتعـــرفن الفتى
قالت الوسطى : نعم هـــذا عمر
قالت الصـــغرى وقد تيمتهـــا
قد عـــرفناه وهـــل يخفى القمر

فقال له : أنت لم تنسب بهن ، وانما نسبت بنفسك ، وانمـــا كان ينبغى لك أن تقول :

قالت لى : فقلت لها ، فوضعت خدى فوطئت عليه » •

وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قالت لهـــا أختهـــا تعـــاتبها
لا تفســـدن الطـــواف فى عمر
قـــومى تصـــدى له لأبصره
ثم اغمـــزيه يا أخت فى خفـــر

قالت لهـا قد غمـــزته فأبى
ثم اسـبطرت تشـتد فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة قال بعضهم أظنه عبد الكريم العادة عند العرب بأن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة ، وهذا دليل كرم النحيزة فى العرب وغيرتها على الحرم (١) » .

فنقد ابن أبى عتيق وكثير لمعانى عمر بن أبى ربيعة نقد فنى يتجه الى معنى النسيب فالنسيب يجعل فيه المرأة بعيدة عن عرض نفسـها على مجيبها ، متعالية برغبتها ، متسامية بأنوثتها ، حتى يخطب ودها ويرجى وصلها ، ويتفاضل الشعراء فى قوة التأثير عليها ، والوصول الى قلبها وعاطفتها .

ولهذا المعنى المتقدم عابت سكينة بنت الحسين على الأحوص قوله متغـزلا :

فان تصلى أصلك وان تعودى   لهجر بعد وصلك لا أبالى

فقالت له : أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت كما قال هذا وأشارت الى نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب   وقل ان تماينا فما ملك القلب

وهكذا أثار شعر الغزل فى العصر الأموى جوا من النقد حفلت به المجالس الأدبية وراح النقاد يحاولون تقويم هذا الشعر وتقييمه، حتى استقام على عودة ، وأضحى فنا رائدا يزّحم بمنكبيه فنون الشـعر الأخرى ، بل أضحى له شعراء تخصصوا فيه ، ووجهوا عنايتهم نحوه.

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ١١٨ المصدر نفسه .

وبعد فان القارىء للشعر الغزل فى العصر الأموى سـواء أكان المادى منه أم العذرى سيجد أنه الشعر الذى تفرد بخصـائص لم يسبق اليها ، فقد أضحى فنا مستقلا بذاته ، ووضحت فيـه جوانب القصة الشعرية وان لم تكن قد اكتملت حبكتها الفنية ، وسـيجد أن الشعراء قد صرفوا همهم الى الأوزان الخفيفة ، حتى تتناسب وفن الغناء الذى أصبح له سلطان على قلوب أولئك الشباب ، بل ان بعض الزهاد وأهل الورع كانوا ينشدون هذا الشعر ويحفظونه ، واذا أردت أن تتبين ذلك فعليك بقراءة كتاب الأغانى ، فستجد فيـه كثـيرا من الأخبار التى تؤكد ما ذهبنا اليه » .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ...

دكتور عبد المنعم احمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية
بالمنوفية